﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٥﴾ [التّوبة: 14 - 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

الانتقالُ من التَّحذيرِ من تركِ القتالِ والتّقاعسِ عنه إلى الأمرِ بهِ، تحفيزٌ للهممِ عليه

لَمَّا وبَّخهمُ اللّهُ على تركِ القتالِ، وتوعَّدَهم عليه معَ ذكرِ موجباتِهِ؛ جرَّد لهم الأمرَ به في تينِ الآيتين، وجعلَ جزاءَهُ خمسةَ وعودٍ؛ ليثبِّتَ قلوبَهم، وتصحَّ نيَّاتُهم، ولا يخشَوا قتالَهم؛ تشجيعًا لهم وتهييجًا للهِمَم؛ لتنبعثَ الحميَّةُ على قتالِهم[1].

وأيضًا: لَمَّا بكَّتَ في التَّواني عنهم؛ وَعَدَهم بما يُزيل خشيتَهم منهم، بل يوجبُ إقدامَهم عليهم ورغبتَهم فيهم، فإنَّه لمّا أنكرَ عليهم تركَ قتالِهم الذي تضمَّنَ الأمرَ به صرَّح هنا بالأمرِ؛ لِينتقلَ من التَّحذيرِ من التَّركِ إلى الأمرِ بالفعلِ؛ لتقويةِ الدَّاعي وحثِّ الهِمَمِ لِمَا في القتالِ من الثِّقَلِ والكراهةِ له[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أصلُ الكلمةِ خَزَوَ، ويدورُ معنى الخِزي على الإبعادِ معَ الذُّلِّ والهوانِ والفضيحةِ من حيثُ وقعَ صاحبُه في عارٍ، وخَزِيَ الرجلُ إذا وَقع في بليَّةٍ وشَرٍّ، فَذلَّ بذلك وَهَان، واسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ فتبَاعَدَ ونأى، ومنه قَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللّه؛ أَيْ: أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ، والخزيُ في الآية بمعنى الهوان والذِّلَّة[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (خزي).

2) ﴿غَيْظَ﴾: هو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ من فورانِ دمِ قلبِه، وينتج منها أشدُّ الغضبِ، أو أشدُّ الحَنَقِ، ويكون كامنًا في القلبِ، ومنه: تغيَّظت الهاجرةُ؛ إذا اشْتدَّ حَمْيُها، وَلَا يَكُونُ الغَيْظُ إلَّا بِوُصُولِ مَكْرُوهٍ إلى المُغْتَاظِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجابهةُ عدوّ اللهِ وعدوّ رسوله؛ شِفاءٌ لما في صُدورِ المؤمنين، ومن تاب قُبِلَ مع المؤمنين

قاتِلوا - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المشركينَ أعداءَ اللهِ يعذِّبْهم اللهُ بأيديكم، ويذلَّهم بالهزيمةِ والقهرِ، وينصرْكم عليهمْ بالظَّفَرِ والغلبةِ، ويبرئْ داءَ صُدورِ قومٍ مؤمنينَ باللهِ ورسولِه، مِمَّا كَانُوا يَنالُونَهُ مِنَ الأَذَى مِنْهُم، ويُذْهِبْ عن قلوبِ المؤمنينَ الغيظَ، ومَنْ تابَ مِنْ هؤلاءِ المعاندينَ، فإنَّ اللهَ يتوبُ على من يشاءُ، ويمنُّ اللهُ على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ الكافرينَ، فيُقْبِلُ بِهِ إلى التَّوبة بتوفيقِه إيَّاه، واللهُ عليمٌ بسرائرِ عبادِهِ، وبمَا كانَ وما سيكونُ، حكيمٌ في تصريفِ أمورِهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الإعجازِ:

إثباتُ صدقِ النَّبيِّ دليلٌ على صحَّةِ نبوَّتِه فيما أخبر

لمّا وفَّى اللهُ بما وعدَ المؤمنينَ به في تينِ الآيتين كانتَا من المعجزاتِ ومن الأدلَّةِ على صدقِ رسولِ اللهِ ﷺ وصحَّةِ نبوَّتِه؛ لأنَّه تعالى أخبرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقعت موافقةً لهذه الأخبار، فيكون ذلك إخبارًا عن الغيب، والإخبارُ عن الغيبِ معجزٌ، فيكونُ إثباتًا لصدقِ نبوَّةِ رسولِ الله محمَّدٍ ﷺ[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/160، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/6، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 189.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/436، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

فائدةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ وأثرُهُ:

قولهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، اسۡتِئۡنَافٌ ابۡتِدَائِيٌّ لِلۡعَوۡدِ مِنۡ غَرَضِ التَّحۡذِيرِ إِلَى صَرِيحِ الۡأَمۡرِ بِقِتَالِهِمُ الَّذِي فِي قَوۡلِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التَّوۡبَة: 12] وَشَأۡنُ مِثۡلِ هَذَا العَوۡدِ فِي الۡكَلَامِ أَنۡ يَكُونَ بِاسۡتِئۡنَافٍ كَمَا وَقَعَ هُنَا[1].

تجاوزُ التَّحذير عن قتالهم في حالات خاصَّةٍ إلى الأمر الصَّريح لأغراض عامَّةٍ

فائدةُ مجيءِ الأمر:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جزمَ الأمرَ بقتالِهم، فجاءَ بصيغةِ الطَّلبِ المباشِرِ بعدَ أنۡ كنَّى عنه في الآياتِ السَّابقةِ؛ ليكونَ الأمرُ على سبيلِ التَّرقِّي من التَّكنِّي إلى التَّصريح؛ لِمَا في القتال من الكُلفةِ والثِّقَل على النَّفس، ولأنَّه مكروهٌ في الطَّبائعِ، وللإيذانِ بأنَّ الامتثالَ لا يكونُ إلَّا بإنجازِ القتالِ وتحقُّقِه، فلا مجالَ للتَّأويلِ في وجوب قتالِهم.

التَّرقِّي في الأوامر من طرائق التَّربيةِ القرآنيَّةِ الحصيفة

دلالةُ الأمر بصيغةِ المفاعلة:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جاء الأمرُ على صيغةِ المفاعلةِ، فلم يقلْ: (اقتلوهم)؛ للإيذانِ بقدرتهم على قتالِهم، فالصِّيغةُ مشعرةٌ بالتَّحريض على مقاومتِهم، وإثارةِ روحِ الجهاد في قلوبِهم؛ لنكثِ الكافرين عهودَهم مع المؤمنين، ولما اتَّصفوا به من الصِّفاتِ الموجبةِ لقتالِهم، كما تفيدُ الصِّيغةُ تشارُكَ الفريقين في القتالِ؛ بمعنى: أنَّ أحدَهما يفعل بصاحبِه فعلًا، فيقابله الآخر بمثلِه، فيُنۡسَب للبادئ نسبةُ الفاعليَّةِ، وللمقابلِ نسبةُ المفعوليَّة؛ أي: إنَّ المؤمنين سيلقَون من أعدائِهم قتالًا، كما تدلُّ الصِّيغةُ على غلبةِ أحدِهما، ولهذا جاء الجزاءُ بذكرِ غلبةِ المؤمنين ونصرِهم، ولمّا أمرَ اللّٰهُ تعالى المؤمنين بقتالِ أعداءِ اللّٰهِ وأعدائهم؛ كان كنايةً عن علمِ اللّٰه بشجاعتِهم وقدرتِهم على المقاتلةِ والمواجهةِ[2].

مواجهةُ الكافرين دليلُ شجاعة المؤمنين، ورسوخ أقدامهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/135.

(2) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/96، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 30 - 31.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأسلوبِ الأمرِ والجزاءِ:

لم يقلْ: (إن تقاتلوهم) أو (إذا قاتلتموهم)؛ لأنَّ في صيغةِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ الإيذانَ بِصريحِ الأمرِ بقتالِهم، بعدَ أنْ كنَّى عنه في الاستفهامِ الإنكاري، أي: استعِدُّوا لقتالِهم، وإنْ لم يطلبوا هم قتالَكُم؛ إشعارًا بأنَّهم قد اتَّصفوا بأوصافٍ توجبُ مقاتلتَهم، مثل نكثِ العهدِ وغيرِه.

الإذنُ بالقتال مُؤذِنٌ بالاستعداد الفعّال، جرّاء نكث العهد والاستفزاز

براعةُ التَّعبيرِ بتتابعِ الجزاء، ودلالتها على التّأييد الإلهيّ:

ذكرَ الجزاء في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، فبدأَ بالأشدِّ والأهمِّ، فجعل جزاءَ القتال تعذيبَهم بأيدي المؤمنين، ثمَّ لمّا كان تعذيبُهم يتسبَّبُ منه خزيُهم وإذلالُهم؛ عطف عليه قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إشعارًا بأنَّ التَّعذيبَ قد يكونُ بالقتلِ، أي: بقتلِ بعضِهم، فيكون الخزيُ على الباقين، وقد يكونُ بغيرِ القتلِ، فيكون الخزي على جميعِهم، ولمّا كانَ نصرُ المؤمنين وانكسارُهم مسبَّبًا من خزيهم وإذلالِهم؛ قال: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، فإنَّه لمّا حصل الخزيُ لهم بسببِ كونِهم مقهورينَ؛ حصل النَّصرُ للمسلمين بسببِ كونِهم قاهرين[1]، ولمّا كان يتسبَّبُ من الظَّفر عليهم شفاءُ المؤمنين من داء الأذى الذي أوقعَهُ المشركون بالمؤمنين بكفرِهم باللّه وأذيَّتِهم المؤمنين قال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ مَنْ طالَ تأذِّيه من خصمِه، ثمَّ مكَّنه اللّهُ منه على أحسنِ الوجوهِ، فإنَّه يعظُمُ سرورُه به، ويصيرُ ذلك سببًا لقوَّةِ النَّفسِ، وثباتِ العزيمةِ، ولمّا كان تعذيبُهم وخزيُهم وشفاءُ صدورِ المؤمنين يتسبَّبُ منه ذهابُ غيظِهم وحَنَقِهم على الكافرين قال تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

بنصرِ المؤمنين على الكافرين تكثرُ نِعَمُ الله وتتتابعُ عطاءاته

"وبُدِئَ أوّلًا فِيها بِما تسبّب عنِ النّصرِ، وهُو تعذِيبُ اللّه الكُفّار

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

بأيدِي المُؤمِنين وإخزاؤُهُم؛ إذ كانتِ البُداءةُ بما ينالُ الكُفّار من الشّرِّ هي الّتي يُسرُّ بها المُؤمِنُون، ثُمّ ذكر السّبب، وهُو نصرُ اللّه المُؤمِنين على الكافِرين، ثُمّ ذكر ما تسبّب أيضًا عن النّصرِ من شِفاءِ صُدُورِ المُؤمِنين وإذهابِ غيظِهِم تتميمًا لِلنِّعم، فذكر ما تسبّب عن النّصرِ بالنِّسبةِ لِلكُفّارِ، وذكر ما تسبّب لِلمُسلِمين من الفرحِ والسُّرُورِ بِإدراكِ الثّأرِ"[1].

سببُ عدم ذكْرِ الغنائم في الجزاء:

لم يذكر تعالى في الجزاء وجدانَ الأموال، والفوزَ بالمطاعم والمشارب؛ لأنَّ العربَ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ، فرغَّبَهم في هذه المعاني، لكونها لائقةً بطباعِهم[2].

العربُ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ والشّجاعة الفطريّة

سر اختيار لفظ ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾:

ذكرَ التَّعذيبَ دون غيره من الألفاظ الدالة على إلحاق الأذى بالغير؛ لأنَّه يشملُ كلَّ ما يطلقُ عليه عذابٌ، فيصدقُ بالقتل وبالأسر وباغتنام الأموال وغير ذلك، كما أنَّ التَّعذيبَ أمرٌ زائدٌ على أسبابه من الطَّعنِ والضَّربِ، فقد يصابُ القومُ بالطَّعنِ والضَّربِ، ويُقتَلُ بعضُهم، ويُجرَحُ بعضٌ، ولا يُسمَّون معذَّبين بذلك وحدَه، فإنَّ الغالبَ والمغلوبَ فيه سواء، فلمَّا قال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾؛ دلَّ على أنَّه تعالى سيُحدِثُ في أنفُسِ المشركين في هذا القتال أذًى جسديًّا وألمًا نفسيًّا، لعلَّ أظهرَ أسبابه اليأسُ وسلْبُ البأسِ[3]، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ الذي يؤثِّر في العدوِّ، ويكون من مُوجِباتِ النَّصرِ، هو تعذيبُهم، وإنزالُ الأذى فيهم، وليس منازلتَهم بالقوَّةِ فحسبُ.

تعذيبُ العدوِّ وإنزالُ الأذى فيهم سببٌ للنَّصرِ عليهم

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة (يُفَعّل):

في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾، عُبِّرَ بصيغةِ (فعَّل يُفَعِّل)؛ لِمَا تفيدُه

عذاب الله على أعداء الدين واقع، أليم متجدد متتابع، ليس له دافع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

من معنى تكثيرِ تعذيبهم بالمقاتلة، كما تدلُّ صيغةُ المضارعةِ على استمرارِ تجدُّدِ تعذيبِهم وآلامِهم بالمقاتلةِ وقتًا عَقِيبَ وقتٍ.

سرُّ تعليقِ العذاب بأيدي المؤمنين:

تشريفُ أيدي المؤمنين بتعذيبِ أعدائهم بها إظهار للغلبة والتّمكين

في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ مقيَّدًا بقوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ تعذيبُهم في الدُّنيا لا في الآخرةِ، إشعارًا بأنَّ عذابَ اللهِ ينالُهم في الدّنيا بتعجيلِه لهم فيها، كما أنَّه واقعٌ ثابتٌ في الآخرة، ولتكون البشارةُ بالتَّعذيبِ على الوجهِ الأتمِّ الذي يترتَّبُ عليه شفاءُ الصُّدورِ ونحوُه على الوجهِ الأكملِ؛ إذْ ثمّة فرقٌ بينَ تعذيبِ العدوِّ بيدِ عدوِّهِ وتعذيبِه لا بيدِه[1]، وفي ذكرِ أيدي المؤمنينَ تشريفٌ لها، إذ جعلَ تعذيبَ أعدائِه بها، كما أنَّ فيها إشعارًا بقوَّتِهم وشدَّةِ ما يقعُ على الكافرين؛ لِمَا يدلُّ عليه لفظُ اليدِ من معنى القوَّةِ والشِّدَّةِ، فاختارها اللهُ ليكونَ تعذيبُ الكافرين بها.

بلاغةُ المجازِ العقلي:

لمّا كانَ قتالُ الكافرين ناشئًا بأمر الله تعالى نسبَ تعذيبَهم إليه

في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، أُسنِدَ التَّعذيبُ إلى اللهِ تعالى، على طريقِ المجازِ العقلي، والظَّاهرُ أنْ يكونَ الإسنادُ إلى المؤمنين، بأنْ يقالَ: تعذِّبوهم بأيديكم[2]، لكنَّه جاء على طريق المجازِ، ونكتتُه ظهورُ امتثالِ المؤمنين لأمرِه تعالى لهم بالقتالِ، أي: لمّا كانَ قتالُهم ناشئًا بأمره تعالى، مع استجاب المؤمنين له؛ نسبَ التَّعذيبَ إليه سبحانَه، فكأنَّ اللهَ تعالى يقولُ للمؤمنين: عليكم قتالُهم، وعلينا تعذيبُهم بأيديكم، كما أنَّ في المجازِ إشعارًا بشدَّةِ العذابِ ودوامِ أثرِه، فيكونُ للمبالغةِ، فإنَّه تعذيبُ اللهِ تعالى القويِّ العزيزِ، وإنْ كانَ بأيدي العبادِ[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

توجيهُ المتشابهِ القرآنيِّ:

نفى اللّهُ تعالى تعذيبَ الكفَّار في حالِ وجودِ رسولِ الله ﷺ بينَهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، فكيف قال هاهنا: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾؟ وجوابُه: أنَّ المرادَ من آيةِ الأنفالِ عذابُ الاستئصالِ، والمرادَ من آيةِ التَّوبةِ عذابُ القتلِ والحربِ، والفرقُ بين البابين: أنَّ عذابَ الاستئصالِ قد يتعدَّى إلى غيرِ المذنب وإنْ كانَ في حقِّه سببًا لمزيدِ الثَّواب، أمَّا عذابُ القتلِ؛ فالظَّاهرُ أنَّه يبقى مقصورًا على مَن يكونُ في القتالِ أو على المذنبِ[1]، وقريبٌ منه أنْ يقالَ في الجوابِ: المرادُ من التَّعذيبِ في آيةِ الأنفالِ النِّقمةُ المحضةُ، وما كانَ ليقعَ على قومِ نبيِّ الرَّحمةِ، وأمَّا هنا؛ فإنَّه انتقامٌ من بعضِهم بما هو رحمةٌ لمجموعِهم، فمآلُه خيرٌ للمؤمنين وللنَّاسِ جميعًا، فهو كقَطْعِ العضوِ المجذومِ من الجسدِ، لأجلِ سلامةِ جملتِه، فلولا ذلك الجهادُ الذي ذاقَ به أولئك القومُ الآلامَ والأوجاعَ؛ لَمَا صارَ الباقون منهم سادةَ البشرِ في الأرضِ[2].

لولا تضحيات السّابقين؛ لَمَا صارَ اللّاحقون رادةَ البشرِ وسادتَهُم

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾:

عُبِّرَ بالخِزْيِ؛ لِما ينزل بهم من الذُّلِّ والهوانِ، حيثُ شاهدوا أنفسَهم بعدَ شموخِهم واستكبارِهم مقهورين ذليلين مَهينين في أيدي خصومهم المؤمنين، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ جزاءَهم بالخزيِ هو لِما ارتكبوه من الأفعالِ القبيحة كالكفرِ ونقضِ العهدِ وغيرِهما، فلمَّا كانت أفعالُهم عارًا؛ عُوقبوا بالخزيِ[3].

أفعالُ العارِ ليس لها جزاءٌ إلَّا الخزيُ والهوان

سببُ إيثارِ حذفِ متعلَّق: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾:

لمّا كان الخزيُ يحتملُ أنْ يكونَ في الدُّنيا أو في الآخرةِ حُذِف الجارُّ والمجرورُ الدَّالُّ على زمانِ الخزيِ؛ لِيفيدَ عمومَ الخزيِ،

خزيُ الدُّنيا بالذُّلِّ والهوان، وخزيُ الآخرةِ بالفضيحةِ والعذابِ الشّديد

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/181.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (خزي)، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

فيتناولَ خزيَهم في الدُّنيا والآخرةِ، والمعنى: ويُخزِهم بالذُّلِّ في الدُّنيا سواءٌ أكانَ بالأسرِ أو بغيرِه، ويخزِهم بالفضيحةِ والعذابِ في الآخرةِ[1].

مناسبةُ الخطابِ في التَّعذيب والنَّصر، والغَيْبة في سواهما:

أعمالُ الإيمانِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم

آثرَ التَّعبيرُ صيغةَ الخطابِ في التَّعذيبِ والنَّصرِ، فقال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ثمَّ عدلَ إلى الغَيبةِ في قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، معَ أنَّ النَّصرَ والشِّفاءَ عامٌّ لكلِّ واحدٍ من المؤمنين؛ لأنَّ تعذيبَ الكافرين ونصْرَ المؤمنين بالنَّظرِ إلى الحاضرين، ولمّا كانَ شفاءُ صدورِ المؤمنينَ يعمُّ الحاضرينَ القتالَ وغيرَهم عُبِّرَ بصيغة الغَيبةِ، إشعارًا بأنَّ أعمالَ الإيمانِ كمُقاتَلةِ الأعداءِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم بسببِ آصرةِ الإيمانِ التي تجمعهم[2].

دلالةُ شفاء صدور المؤمنين:

بيان أنّ في قتالِ الكافرين شفاءَ صدورِ المؤمنين

قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، لمّا كانت قلوبُ المؤمنين تتوجَّعُ لكفرِ الكافرين باللهِ، وتكذيبِهم الرَّسولَ، وتتألَّمُ له؛ وعدَهم شفاءَ صدورِهم، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما: أنَّهم يُسلِمون، فيصيرونَ إخوانًا، فيدخلُ فيهم السُّرورُ والفرحُ بإزاءِ ما حزنوا وتألَّموا، وذلك شفاءُ صدورِهم، ولهذا أعقبَه بذكرِ التَّوبةِ، والثاني: أنّه يشفي صدورَهم بقتلِ الكافرين وهزيمتِهم؛ لِمَا لَقُوا منهم من الأذى والغمِّ، ففي قتالِ الكافرين شفاءُ صدورِ المؤمنين[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التصريحيّة التبعيّة:

قتالُ الكافرين النَّاكثين العهدَ دواءٌ يُزيلُ الغمَّ عن المؤمنين

قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، جاء الكلامُ فيه على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه: أنَّه شبَّهَ الغمَّ الشَّديدَ، والهمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/311.

الكبيرَ الحاصلَ بأذيَّةِ الكافرين للمؤمنين بالمرضِ الحاصلِ في الصُّدورِ، فكان قتالُهم بمنزلةِ الدَّواءِ الّذي يُزيلُ هذا الغمَّ، ويشفي الصُّدورَ.

ونكتةُ التَّعبيرِ بالاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة: الإشعارُ بضَرورة قتالِهم، وأنَّه هو الدَّواءُ لإزالةِ ما أصابَ صدورَهم من الهمِّ والغمِّ.

مناسبةُ التَّعبير بلفظ (الصُّدور) دونَ (القلوب):

لمّا قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الأذى الذي سبَّبَ الهمَّ والغمَّ للمؤمنين إنّما هو بسببِ أهل الكفر الفاسدةِ، وبسبب الأذى النَّفسي للمؤمنين، ممَّا ينالونَه منهم من عوارضِ الدُّنيا.

عقائدُ الكفرِ الفاسدةُ وبالٌ على الكفّار، وهَمٌّ وغمٌّ للمؤمنين

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الاسم النَّكرةِ ﴿قَوْمٍ﴾؛ ليشْمَلَ المُخَاطَبِينَ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ؛ لِأَنَّ مَا يُصِيبُ أَهْلَ الْكُفْرِ مِنَ العَذَابِ وَالخِزْيِ بل كلَّ ما يَهدُّهُم، هُوَ شِفَاءٌ لِصَدْرِ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ فإنَّ كفرَ الكافرين همٌّ في صدور المؤمنين، كما يحتمل أنْ يريدَ تخصيصَ قوم من المؤمنين الذين نُقِضَ فيهم العهدُ، ونالتْهم الحربُ، فهؤلاءِ فريقٌ تُغايرُ حالتُهُ حالةَ الفريقِ المخاطَبينَ بالتَّحريض على القتالِ والتَّحذيرِ من التَّهاونِ فيه[1]، وفي هذا الوجهِ إشعارٌ بأنَّ ما يصيبُ قومًا معيَّنين من المؤمنين يوجبُ على الجميعِ نصرتَهم وإعانتَهم.

إصابةُ بعض المؤمنين بالأذى يوجِبُ لهم النّصرةَ العامّة

براعةُ الالتفات:

قوله: ﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يأتِ الكلامُ على نسقِ ما سبق، بأنْ يقالَ: (ويشفِ صدورَكم)؛ فأقامَ الظَّاهرَ مُقامَ المضمر؛ ليكونَ من باب الالتفات، وفائدتُه: الشَّهادةُ للمخاطَبينَ برسوخِهم في الإيمانِ لامتثالِهم أمرَ الله تعالى، كما أنَّ في التَّعبير بلفظِ ﴿قَوْمٍ﴾ إظهارًا لقوَّةِ هؤلاء القومِ ومَنَعتِهم[2].

امتثالُ أوامرِ الله دلالةٌ على الرُّسوخِ في الإيمانِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/27، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/39.

مناسبةُ العطفِ:

التَّرقِّي يجعلُ شفاءَ الصُّدور مسرَّةً، وذهابَ المكارِه لذَّةً

في قوله: ﴿وَيَشْفِ﴾ و﴿وَيُذْهِبْ﴾، قد يقالُ: ما الفرقُ بينَ شفاءِ الصُّدورِ وإذهابِ غيظِ القلوبِ، فإنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟ وجوابُه: أنَّه قد يكفي في الاختلافِ بينهما اختلافُ المفهومينِ والحالينِ، فيكونُ ذهابُ غيظِ القلوب مساويًا لشفاء الصُّدور، فيحصل تأكيدُ الجملة الأُولى بالجملة الثَّانية؛ فيكونُ شِفَاءُ الصَّدْرِ مِنْ آلَةِ الغَيْظِ هُوَ إِذْهَابَ الْغَيْظِ، وفائدةُ التَّأكيدِ المبالغةُ في جعلهم مسرورين بما يمنُّ اللّه تعالى عليهم من تعذيبِه أعداءَهم وإخزائِهم، ومِن نصرتِه سبحانَه لهم عليهم[1].

والظَّاهر: أنَّ بينهما مغايرةً في المعنى، ويُؤذِنُ به مجيءُ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بدايةَ آيةٍ، وبيانُه: أنَّ القلبَ أخصُّ من الصَّدر، ولمّا كان الغيظُ الذي يقعُ بالمكارِه والمكابدِ هو الحرارةَ الشَّديدةَ في القلبِ، وينتجُ منه الغضبُ الذي هو من آثارِ الغيظِ، كانت إزالةُ الغيظِ بإذهابِه، فيثبتُ بالإذهابِ لذَّةُ ذهابِ المكارِه، وهو غيرُ الشِّفاء، فالغيظُ ليس داءً يصيبُ القلبَ، وإلَّا ما كانَ كظمُ الغيظِ يَجري في مقامِ المدحِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، ولم يقلْ: (ويشفِ قلوبَهم من الغيظ)، وأمَّا الهمُّ الذي يصيبُ الصُّدورَ، فإزالتُه بالدَّواءِ، وقد جعلَ دواءَهُ قتالَهم المسبِّبَ لتعذيبِهم ونصرِ المؤمنين الموجبِ فرحتَهم وسرورَهم، وبهما يكون شفاءُ الصُّدورِ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الفرحَ نوعٌ من الدَّواءِ، وبه يقعُ الشَّفاءُ، فشفاءُ صدورِ المؤمنين بنصرِ اللّهِ هو غيرُ ذهابِ الغيظِ مِن قلوبِهم والحقدِ على مَنْ غدرَهم وظلمَهم، ويحتملُ أنْ يقالَ: لمَّا كانَ الشِّفاءُ قد لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/383، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

يُراد به الكمالُ؛ أتبعه تحقيقًا لكماله قولَه: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، أي: يُثبتُ بها من اللَّذةِ ضدَّ ما لَقُوه منهم من المكروهِ، وينفي عنها ألمَ ما كابَدوه من المساوئِ والمكارهِ التي أوجبت الغيظَ، أو يقالُ: لمّا كانَ إذهابُ الغيظِ من القلبِ أبلغَ من شفاءِ الصُّدور؛ كان العطفُ من بابِ التَّرقِّي في الفوائدِ، وهو حَسَنٌ ولطيفٌ، كما يحتملُ أنْ يكونَ الاختلافُ بـ(المصدق) مع اختلافِ المفهوم، فيكون المرادُ بشفاءِ الصُّدورِ ما يحصلُ من المسرَّةِ والانشراحِ بالنَّصرِ، والمرادُ بذهابِ الغيظِ استراحتُهم من تعبِ الغيظِ، وتحرُّقِ الحقدِ[1].

دلالةُ عَوْدِ الضَّمير في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾:

لمّا عاد الضَّميرُ في قوله: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾ إلى الموصوفِ وصفته ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الصحابةَ مؤمنون في علمِ اللّه تعالى إيمانًا حقيقيًّا؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ قلوبَهم كانت مملوءةً من الغضب، ومن الحميَّةِ لأجل الدِّين، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في علوِّ دين الإسلامِ، وهذه الأحوالُ لا تحصلُ إلَّا في قلوبِ المؤمنين.

بيانُ حبِّ الصَّحابةِ للإسلامِ، وحميّتهم لإعلاء الدّينِ ونصرته

بلاغةُ الاستئناف الابتدائيّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، نلاحظ أنّه لمّا كان الجزاءُ في قولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ قد يُشعرُ أنَّ المرادَ تعذيبُ جميعِ الكافرين، وكان المؤمنونَ حريصينَ على إيمانِهم؛ جاءت الجملة استئنافيَّةً؛ للإيذانِ بأنَّ الخزيَ والتَّعذيبَ الّذي سينزلُه بهم لا يعمُّهم، بل هو خاصٌّ بمن استحوذَ عليهم الكفرُ، فلم يبقَ فيهم استعدادٌ للإيمان، وأمَّا غيرُهم من المشركينَ الذين خانُوا، وغدَروا، ولم يَقتلوا، بل أسلموا مِنْ قبلِ هذا الأمرِ أو بعدَه؛ فيتوبُ اللّهُ على مَنْ يوفِّقُه للإيمانِ، ويتقبَّلُ

الإمهالُ في التَّوبةِ رحمةٌ من اللّه لعبادِه، وإعذارٌ لهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

توبتَهم منهم، وفي هذا إعذارٌ وإمهالٌ لمن تأخَّر فضلًا من الله تعالى ورحمةً بهم[1].

مناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾، بالوصلِ دونَ الفصلِ:

لمَّا كانت الجملُ الَّتي سبقتْ هذه الجملةَ جزاءً للطَّلبِ، وكانت هذه الجملةُ ليست مسبَّبةً عن القتال على الصَّحيح - ويؤيِّده قراءة الجمهور لقولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرَّفعِ - كان الظَّاهر أنْ تُفصلَ عمّا قبلَها، فلمَّا جاءتْ بطريقِ الوصلِ بواو العطفِ؛ دلَّ على التَّشريكِ بين معناها، ومعنى ما تقدَّمها؛ إشارةً إلى أنَّ مضمونَها يتعلَّق ببقيَّة أحوالِ المشركين الذين لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا، فكأنَّه قيلَ: فما حالُ من لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا؟ فقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، فناسب انتظامُها مع ما قبلها[2].

بـــابُ الـتَّـوبـةِ مفتوحٌ لمن قاتلَ المؤمنين ومَنْ لم يقاتلْهم، إذا صدق وأناب

توجيهُ قراءتَي الرَّفع والنَّصب في قوله: ﴿وَيَتُوبُ﴾:

قرأَ الجمهورُ ﴿وَيَتُوبُ﴾ برفعِ الباء، وقرأ رُوَيسٌ عن يعقوبَ ويونسُ عن أبي عمرٍو بنصبِ الباء، أي: (وَيَتُوبَ)[3]، ووجهُ قراءةِ الرَّفع أنَّ ﴿وَيَتُوبُ﴾ ليس من جنسِ ما يكون جزاءً للقتال؛ لأنَّ التَّوبةَ لا يكون القتالُ سببًا لَها؛ إذ قد توجدُ بغير قتال، لِمَنْ شاءَ اللَّهُ أنْ يتوبَ عليه في كلِّ حال؛ أي: إنَّ القتالَ غيرُ موجبٍ لهم التوبةَ من الله، وهو مُوجِبٌ لهم العذابَ من الله، والخزيَ، وشفاءَ صدور المؤمنين، وذهابَ غيظ قلوبهم، فجزم ذلك شرطًا وجزاءً على القتال، فابتُدِئَ الخبرُ به ورُفع، ووجهُ الرَّفع حثُّ الباقين من الكفَّارِ بعدَ القتالِ على التَّوبةِ[4]، ووجهُ قراءة النَّصب هو أن تكونَ الواو للمعيَّةِ، والفعلُ

الـــرَّفـــعُ: فيه حـــثٌّ الـكـفَّـار عـلى الـتَّـوبـةِ، والـنَّـصـبُ: هو أن تـكـون الـواو للمعيَّةِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/278.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/162، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن جنيّ، المحتسب: 1/285.

بإضمارِ (أنْ)؛ أي: بتقدير: (وأنْ يَتُوبَ)، بأنْ يرادَ بالتَّوبةِ توبةُ المؤمنين؛ فإنَّ قتْلَ الكافرين والجهادَ في سبيلِ اللّه هو توبةٌ للمؤمنين وكمالٌ لإيمانِهم، فتدخلُ التَّوبةُ على هذا في شرطِ القتالِ؛ بمعنى: أنَّ اللّه تعالى يجمعُ عليهم بالقتالِ التَّوبةَ إلى ما ذكره من الجزاءِ، ويحتملُ أنْ يرادَ توبةُ الكافرينَ، وهو الظَّاهر، ويؤيِّده السِّياقُ، بأنْ يقالَ: لمّا كانت مقاتلتُهم سببًا لتوهين أمرِهم وفلِّ شوكتهم، فتقلَّ بذلك نخوتُهم وحميَّتُهم كانَ ذلك سببًا لاستكانتِهم وخضوعِهم، فيتدبَّروا، ويتأمَّلوا أمْرَ رسولِ اللّهِ ﷺ، وأنَّه على الحقِّ المبينِ، وأنَّهم على الباطلِ والزَّيغِ، فيرجعوا عن كفرِهم إلى الإسلامِ، أو يقالَ: إنَّ القتالَ كما تسبَّبَ بتعذيبِ قومٍ، تسبَّبَ بتوبةِ قومٍ آخرين، فيرجعون إلى اللّهِ لمّا رأوا الموتَ بأعينِهم، أو يقالَ: إنَّ قِتَالَ الْكُفَّارِ وَغَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ قَدْ يَنْشَأُ عَنْهَا إِسْلَامُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا دَاعِيَةٌ قَبْلَ القِتَالِ[1].

مناسبةُ الإظهارِ، في مقامِ الإضمارِ:

تـكـرارُ الاسـم الجليل (اللـه) تربيةٌ للمهابةِ في نـفـوسِ المخاطَبين

لمّا كان الاسمُ الجليلُ قد ذُكِر في قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ كان مقتضى الظَّاهر أن يأتيَ بالضَّمير، فيقولَ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)، لكنَّ الكلامَ جاء على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فأوثرَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ على الإضمارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المخاطَبين[2]، ولأنَّ الإخبارَ عن الاسمِ الجليلِ الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ بهذين الوصفين الجليلَين مشعرٌ بخُصوصيَّتِهما في هذا المقامِ ومناسبةِ معانيهما لمضمونِ السِّياقِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/195.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

شمولُ رحمتِهِ، وبالغُ حكمتِهِ، يَطُول جميعَ خَلْقِهِ

عبَّرَ بالاسم الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ (الذي) بأن يقول: (ويتوبُ اللهُ على الذي يشاءُ)؛ لأنَّ (مَنْ) أكثرُ عمومًا واستغراقًا للأفرادِ؛ تنبيهًا على إمكانِ استغراقِ توبتِهِ تعالى لعمومِ خَلقِه.

ولمّا كان لفظُ ﴿مَن﴾ أعمَّ مِن (الذي) - إذ أنَّه يشمَلُ المفرد وغيره، والمذكَّر والمؤنث - أشعرَ بإطلاق قدرة الله تعالى على عبادِهِ؛ فلا يحولُ بينه وبين توبتِهِ أحدٌ من خلقِهِ، فقد يتوبُ على من كان في صفوف المقاتِلين، فيهديهِ اللهُ للإسلام إن كان كافرًا، أو يشرحُ صدره إن كان منافقًا، أو يثبِّتُهُ، ويعينهُ إن كان مؤمنًا مقاتِلًا.

بلاغةُ الحذفِ:

الإيجازُ، والتَّنبيهُ على أنّ وقوعَ مشيئة الله لا يتوقَّف على أسباب

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ للإيجازِ، ولو قيل: (ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاءُ أنْ يتوبَ عليه) لصِرْنا إلى كلامٍ غَثٍّ، وإلى شيءٍ يَمجُّهُ السَّمْعُ، وتَعافُه النَّفْسُ؛ لعلمِ السَّامع أنَّ المشيئةَ تعلَّقت في المعنى بشيءٍ عُرِفَ من السِّياقِ، فالواجبُ في حُكْمِ البلاغةِ ألَّا يُنْطَقَ بالمحذوفِ هنا، ولا يَظْهَرَ إلى اللَّفظِ[1].

فحذْفُ المفعولِ دلالةٌ على طلاقةِ القدرة، وعظيم العفو، فهو غيرُ مرتبطٍ بأسبابٍ تُوَصِلُ إلى نتائج، بل فضلُ إنعام، وآيةُ فضل، وعلامةُ إكرام من ذي الفضل والمنَّةِ ذي الجلال والإكرام.

بلاغةُ التَّذييلِ:

اللهُ تعالى يعاملُ النَّاس بنيَّاتِهم، في حكمة وعلم، بما يصلح لهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، هي جملةُ التَّذييل، وقد تضمّنت الإخبارَ عن لفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بالوصفين الجليلين؛ لإفادة أنَّ اللهَ يعامل النَّاس بما يعلم من نيَّاتِهم، وأنَّه حكيمٌ لا يأمرُ إلَّا بما فيه تحقيقُ الحكمةِ، فوجبَ على النَّاس امتثالُ أوامرِه، وأنَّه

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 164.

يقبلُ توبةَ مَنْ تابَ إليه تكثيرًا للصَّلاحِ، فأفادتِ الجملةُ التَّذييليَّةُ معنًى عامًّا كلِّيًّا؛ لِتجريَ مَجْرى المثَلِ في الكلامِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللفظي:

مـجـيءُ جـمـلِ التَّذييل على ما يـنـاسـبُ الآيـةَ، ويـلائـم معناها وسياقَها

قال الله تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثمَّ قال فيما بعدُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27]، فاستوتِ الآيتانِ في إعلامه تعالى نبيَّهُ والمؤمنين أنَّه يتوبُ على مَنْ يشاءُ، وفي ختْمِ كلِّ آيةٍ بصفتين من صفاته سبحانه - فقيل في الأُولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الثانية ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27] - مناسبةٌ حسنةٌ، ووجهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأولى أعقبَ بها ما تقدَّمها مُتَّصِلًا بها من الآي في كفَّار مكَّةَ وفعلِهم مع رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه من التَّضييقِ والإحراجِ وبدئِهم بالقتال يومَ بدرٍ ونقضِهم العهدَ، فأمر الله تعالى بقتالِهم؛ ليكونَ القتالُ سببًا لتعذيب اللهِ لهم، ولِخزيهم والنَّصرِ عليهم، ولِشفاءِ صدورِ قومٍ مؤمنين، وإذهابِ غيظِ قلوبِهم، ثمَّ أخبرَ بتوبتِه على مَنْ يشاءُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما في الأمر بالقتال، وفي طيِّ ما يجري فيه وتوابعِه ممَّا سيكونُ، وأنَّ ذلك كلَّهُ بتقديره السَّابق أوَّلًا؛ إذْ لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنه وتقدُّمِ علمِه أوَّلًا، وحكيمٌ في أفعالِه وأوامرِه، ومنها: أنَّه تعالى أمركم بقتالِهم، فهذا وجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانية؛ فسببُها ما جرى يومَ حُنينٍ من تولِّي النَّاس مدبرين حين ابتُلُوا بإعجابِهم بكثرتهم، فلم تغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبتْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلك اليوم إلَّا بعض أصحابه؛ إذ لم يبرحْ ﷺ من مكانه، فنادى العبَّاسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصار، فاستجابَ ناسٌ، وأنزلَ اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى المؤمنين، ومكَّن نبيَّه والمسلمينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.

من أعدائِهم، فخُتِمتْ هذه الآيُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: 27]؛ لمناسبةِ سياقِ التَّوبةِ؛ تأنيسًا لمَنْ فرَّ من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارةً لهم بتوبةِ اللهِ عليهم، وأنَّ ما وقعَ منهم من الفرارِ مغفورٌ لهم؛ رحمةً من اللهِ سبحانَه، فجاء كلُّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يلائِمُ خلافُه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغيظُ والغضبُ:

الإغاظةُ: تكونُ من نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، والغضبُ: لا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ الغيظَ كما تقدَّمَ في شرح المفردةِ هو الحرارةُ الكامنةُ في القلبِ، بحيثُ يمتلئ القلبُ بها، ويكون كامنًا من هذه الحرارةِ الغضبُ، كما أنَّ الغيظَ يلازمُه إرادةُ انتقام صاحبِه ممَّن أوصلَ إليه المكروهَ، فيكون أخصَّ من الغضب، كما أنَّ الفرقَ بينهما له وجهٌ آخر؛ هو: أنَّ الإغاظةَ تكون من نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، وأمَّا الغضبُ؛ فلا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ، فالإنسانُ يجوزُ أنْ يغتاظَ من نفسِه، ولا يجوزُ أنْ يغضبَ عليها، وذلك أنَّ الغضبَ إرادةُ الضَّررِ للمغضوب عليه، ولا يجوزُ أنْ يريدَ الإنسانُ الضَّررَ لنفسه، والغيظُ يقربُ من بابِ الغمِّ، فيكون كامنًا في النَّفسِ، ويُظهرُه الغضبُ[2].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/227.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 130، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»